

المرحلة المدنية

الأستاذ الكبير المفكر مالك بن نبي

قد أخذت مكة؛ ساعة رحيل المهاجرين،
فقامت قريش على آثارهما.

إن من يعرف حياة الصحراء، يدرك
تماماً ضالة الفرصة التي كانت أمام
النبي وصاحبه للنجاة، ولقد بلغ القافة
فعلاً مدخل الغار، لكنهم لم يتجاوزوا
عتبته، وتفسر السيرة هذه الحادثة
الغريبة بتدخل معجز لحمامة ورقاء،
ولعنكبوت واهن.

وأية كانت وجهة الأمر، وحتى لو
كانت تعليقات السيرة قد أمكنها أن
تدخل في تفسير هذا الحل العجيب،
فإن القيمة التاريخية ليست بأقل ثبوتاً،
فهي - في الواقع - مقررة في أوثق مصادر
ذلك العصر، وهو القرآن؛ وقد ورد
الحادث صراحة في قوله تعالى: ﴿إِذْ
أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَائِفَ اثْنَيْنِ إِذْ
هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾

بينما كانت مكة تتآمر ضد رسول
الله ﷺ، كانت المدينة على العكس من
ذلك تهيئاً استقبلاً حماسياً حافلاً.

وكانت بيعة العقبة - ميثاق النبي ﷺ
مع رجال المدينة الملقين منذ ذلك الحين
بالأنصار - وهمة النقيب مصعب بن
عمير، الذي عرف كيف يكسب للإسلام
كثيراً من عواطف يثرب، كان هذان
العمالان هما اللذان مهدا للهجرة.

وفي إحدى الليالي، بينما كان
المتآمرون يحيطون ببيت النبي، خرج
تحت أعين أعدائه، دون أن يروه - كما
جاء في الخبر - ولقد نجح في الوصول إلى
ضواحي مكة برفقة صاحبه أبي بكر،
فلجأ إلى "غار ثور". حيث كان على
الدليل الذي اتفقا معه أن يلحق بهما مع
نوقه حاملاً المؤونة في يومين أو ثلاثة
لتضليل المطاردين، ولكن الرجفة كانت

وعلى أسطح المنازل، ترقب النساء والأطفال مقدم المهاجرين العظميين، واستهلوا العهد الجديد، عهد الهجرة. بأنشودة، ترددها منذ ذلك الحين أجيال الإسلام:

طلع البدر علينا

من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا

مادعا الله داع

أيها المبعوث فينا

جئت بالأمر المطاع

وبينما كانت هذه الأنشودة تنطلق من كل مكان، كان المهاجرون والأنصار يعتقدون فيما بينهم أواصر الأخوة الإسلامية، أساس المجتمع الجديد، والحضارة الجديدة.

ولكن، كم من المشاكل التشريعية، والدينية والسياسية والعسكرية سيواجهها هذا المجتمع الناشئ...؟... إن حل هذا الحشد من المشاكل هو الذي سيظهر فيه النبي صلى الله عليه وسلم عبقرية ذات رحابة لا مثيل لها، مستهدياً بالوحي الذي يجيء حاملاً دائماً الشعاع

لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴿التوبة: ٤٠﴾

وواضح من هذا أن القدر قد يمهد سبله بطريقة غير مفهومة أحياناً، تخير الخواطر والعقول.

ونحن نرى لفائدة دراستنا هذه أن نهتم بالتفصيل النفسي في هذه الحادثة التاريخية، ذلك التفضيل الذي تدل عليه سكينة النبي، حين كان يطمئن رفيقه، في هدوء يفوق طاقة البشر، بينما الخطر والموت على قيد خطوات، وإن إخلاص النبي الذي نوّكده في هذا المقياس الأول كشرط ضروري، لاستخدام الآيات القرآنية كوثائق نفسية ثابتة، هذا الإخلاص يتجلى هنا بوضوح وبصورة روائية في تلك اللحظة الحاسمة.

وأخيراً، فحينما انسحب المطاردون استطاع المهاجرون أن يأخذوا طريقهما إلى يثرب، موطن الأنصار، الذين أعدوا لهما استقبلاً عظيماً، وغيّرت مدينة (يثرب) اسمها فأصبحت (مدينة الرسول) كيما تخص نفسها تماماً للدعوة والداعية. (1)

العلوي، والكلمة الأخيرة.

وسيكشف "الرجل" عن ذكاء عجيب، وعن حكم على قيم الأشياء، وعلى نفسية الرجال منزه تقريباً عن الخطأ، كما يكشف عن إرادة لا يعترها الوهن.

لقد تتبعنا حتى الآن خطواته كداعية فحاولنا أن نفهم حركات قلبه، وخلجات نفسه، وأن نكتشف في إشاراته وفي دعوة الدلائل الناصعة على خشوعه، وإيمانه، وإخلاصه المطلق.

وإذا كانت المرحلة المكية في جوهرها عهداً روحياً، هو عهد النبي الداعية الذي يرشد المصطفين الأخيار، فإن المرحلة المدنية استمرار للمرحلة الأولى، ونتيجة زمنية لها، في وقت واحد، فالنبي والقائد سيتحدان الآن في ذات واحدة تدعو وتقود جموع المؤمنين.

وإنه لمن الواجب حقاً أن يتبع في قيادة الجماهير ما يتصل بنفسية الفرد، فإن مشاكل مجتمع ما لا يمكن أن تحل بالأسلوب الرائق الرشيق فحسب، ولذلك فإن الرسول سيتيح لنا أثناء

شغله في حل تلك المشاكل جميعاً أن نكمل صورته النفسية بمظهر عقلي، إذ عندما يضطرم نشاطه يمكن أن نفهم ألوان فكره، وأن تقوم نسيج إرادته، وأن تقدر قيمة حكمه على الآخرين، وعلى نفسه أيضاً.

وإنه لزعم غريب أن نحاول الإحاطة بجوانب هذا المظهر العقلي جميعاً، فذلك يستلزم أن نلم بتاريخ العبقريّة الفذة كله في الحدود الضيقة لهذا الفصل، بل إننا سنقتصر على أن نضع بعض المعالم التي تؤدي إلى النتيجة المقصودة من هذا المقياس.

سيكون شغل النبي الشاغل بالمدينة أن يقر فيها الإسلام، ويخلصها من خصوماتها الداخلية، ويصلح ما بين الأوس والخزرج، لتنظيم دفاع فعال ضد الأعداء في الخارج: "قريش". إن ساعة الجهاد ستؤذن عما قريب.

ولقد كان هذا مثار دهشة وعجب لدى النقاد المحدثين، فهم لا يفهمون أن "الداعية" يدعو هكذا إلى حمل السلاح، ولكن إذا كان النبي قد

كم سيعترض الدعوة من عقبات قبل هذا الموكب العظيم الذي يدوخ، يوم دخول المسلمين مكة، ذلك الصّلف أبا سفيان؟! إن مجموعة من الأسماء المهيبة ستدوي منذ ذلك الحين في أركان التاريخ العالمي: بدر... أحد... الخندق... حنين...

لسوف تعرض الملحمة المحمدية آنذاك على شاشة التاريخ مجموعة من الأحداث الأسطورية، حتى كأنها رواية سحرية. ها هو ذا حلم "أمنة" القديم، عندما كانت تهز بين أحضانها ثمرة أحشائها، وعندما يخيل إليها أنها تسمع صهيل الخيل، وعدو الفرسان، وقعقة السلاح، هذا الحلم القديم سيتحقق اليوم على صفحة الواقع.

وفي هذه الملحمة سيتدخل القائد دائماً لكي يفصل في حالة دقيقة، ولكي يتخذ قراراً سياسياً هاماً، ولكي يضع استراتيجية، ولكن النبي هناك دائماً، يشرف على أعمال القائد، ويمضي قراراته من جهة نظر دعوته، التي تخلع على كل تفصيل في هذه الملحمة الطابع الروحي

حمل السيف فلائته كان يعلم جيداً أن مكة لن تلقي السلاح، وسيعطيه التاريخ على ذلك البرهان القاطع.

ولا مجال هنا لأن نعقد مقارنة بين المسيحية والإسلام في هذه النقطة، فإن الظروف التاريخية ليست واحدة، إذ تواجه الأولى من الداخل دولة منظمة تحكم أجهزتها على حين أن الإسلام يواجه دولة منظمة نوعاً ما من الخارج، هي مكة، فكان عليه أن يختار بين أن يحطمها، أو يتحطم، وفضلاً عن ذلك فإن هذه الظروف يفرضها مجرى الحوادث نفسه إذ أن الجهاد يعتبر من الناحية التاريخية نتيجة الهجرة.

هذه الظاهرة نفسها قد حدثت في تاريخ اليهودية، عندما واجه بنو إسرائيل بقيادة موسى ويوشع، من الخارج، دولة منظمة على شاطئ نهر الأردن.

فالرسول إذن سينظم صفوفه من أجل الصراع المسلح الذي سيفتح له أبواب مكة في السنة الثامنة من التاريخ الجديد، ولكن

الضروري الذي ينسبه إلى الله.

وسنجد "محمدًا" عندما ستدق ساعة بدر، بعد أن يكون قد اتخذ أهبطه الحربية الكاملة، نجده وقد شعر بخطورة اللحظة التي يتقرر مصير الإسلام، وقد رأى التفوق العددي لأعدائه بالنسبة لحفنة الرجال التي يقودها، نجده يرفع عينيه إلى السماء: (اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد في الأرض، اللهم أنجز ما وعدت).

وهذه الكلمات البسيطة تدل بوضوح على أن "بدرًا" ليست كمعركة "كان"⁽²⁾ أو "استرلitz"⁽³⁾ أو "سنغافورة"⁽⁴⁾.

ولقد كانت هذه الملحمة تتحرك بعبقريّة "محمد" القادرة، وإرادته الخارقة، متبعة من نصر إلى نصر ... حتى حين.

وإن عمق آرائه ليحير أحياناً صحابته أنفسهم، فإن أول عمل دبلوماسي أمضاه مع مبعوثي مكة، سيكون بالنسبة لبعض الصحابة موضع دهشة، ومبعث عار تقريباً، فلقد جاء الرسل من مكة لكي يصلوا مع النبي إلى أن يسلمهم

من وقت توقيع المعاهدة كل مكّي يأتي هارباً إلى معسكره، إذا أن كثيراً من المؤمنين المستضعفين سيهربون من اضطهاد قريش، ويجيئون لينشدوا الأمان في مدينة الأنصار.

ولقد وقع النبي ﷺ المعاهدة التي طبقت في الحال دون أن تكون ذات أثر رجعي، وبدا هذا النص العجيب وكأنما قد أتاح لمكة نصراً دبلوماسياً، تدمر منه منه المسلمون ورأوه فضيحة لهم. وفي اللحظة التي كان المبعوثون يتبادلون فيها وثائق التصديق، تقدم هارب مكّي إلى المعسكر الإسلامي، فطالب به رسل مكة في الحال، ولم يسلك النبي إلا أن يسلم بالواقع، مثيراً بذلك ذهول أصحابه، وأعيد الأسير، ولكنه أثناء الطريق غافل القوم وهرب منهم، وأوى إلى مكنم احتفى به، وبعد قليل انضم إليه كثير من إخوانه الذين هربوا مثله من الاضطهاد، وإذ بهؤلاء الخارجين على القانون قد نظموا على الطريق نهباً لقوافل مكة، فشلوا بذلك، وفي زمن قليل، تجارة المدينة القرشية كلها حتى إنها رأت أخيراً

أن تتوسل رغبة إلى النبي ليقبل المؤمنين الهاربين إلى معسكره. وجملة القول أن النبي قد ظفر بجميع امتيازات المعاهدة التي بطل منها الشرط الوحيد القاسي، أبطله المنتفعون به أنفسهم.

وهكذا بينما كان "النبي" يقود في سبيل الله (فيلق) الشهداء الذين اتبعوه، كان "القائد" يُلقن أبطال ملحمة أسمى دروس الدبلوماسية والاستراتيجية الحربية، جاعلاً من المسلمين بهذا التوجيه المزدوج أعظم الفاتحين نواهة، في الوقت الذي يعتبرون فيه أكمل المستنيرين في التاريخ.

لم يصنع الرسول نفوساً مؤمنة فحسب، وإنما صنع عقولاً مستنيرة، وطرق إرادات فولاذية، إنه ينمي الشعور بالمسؤولية، ويشجع المبادأة في كل إنسان، ويعظم الفضيلة في أبسط صورها، وإن التأسّي والمسارة لهما رائد كل عضو في الجماعة، إذ يرى نفسه في سباق إلى الخير، بحسب أمر القرآن.

وعندما قاد النبي أصحابه إلى (تبوك) كانت نيته تبدوا أبعد كثيراً من هذا الهدف المتواضع، فهو يعبر الصحراء العربية، في حمارة القيظ مضطراً رجاله العطاش، الذين أضناهم التعب، أن يستمروا في طريقهم دون أن يحطموا رحالهم عند "آبار مدين".

لم يكن هذا من الفن الحربي فحسب، ولكنه كان من التربية العالية، وإن هذا المسير الذي لم يسمع بمثله في منظره الهائل ليكشف - زيادة على ذلك - عن عملية تدريب بدني ونفسي في آن واحد، لإعداد الجيش الإسلامي كما يواجه عما قريب الأسفار والعقبات في جميع أنحاء العالم.

ولقد احتمل نفسه كل المتاعب التي فرضها على جنده خلال هذه الحقبة المضنية، فهو مسير هائل ورائع سيوحي إلى "دينيه Dinet" بصفحة خالدة، ارتبطت فيها عبقرية مصور الصحراء المبدع بنفس المؤمن المضطربة.

و"محمد" باعتباره "نبياً" يلتزم دائماً في سلوكه الشخصي الحقيقة المنزلة، فهو

تخاطب الجوارح.

ففي يوم دفن ولده الوحيد الذي رآه يكبر (إبراهيم)، حدث كسوف كلي، وفسر الناس الظلمات المفاجئة بأنها آية على مشاركة الطبيعة للنبي في حزنه، ولكنه صحح في حزم خطأ صحابته قائلاً: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته)⁽⁶⁾.

هذا التفصيل التاريخي الذي ترويه السيرة ببساطة، يثبت لنا إخلاص "محمد المطلق"، ويرينا اقتناعه الشخصي لم يكن قائماً على شبه معجزة.

وعلى كل حال، ففي ضوء وثيقة نفسية كهذه، لا يمكن أن نعتبر هذا الاقتناع نتيجة استعداد عقلي غير سليم، واتجاه منحرف لتفسير بعض الأحداث العارضة داخل الذات، أو الخارجية عنها بأنها آية علوية، إن محمداً ذو فكر موضوعي، لا يميل إلى تأييد دعوته بغير معجزته الوحيدة: "القرآن".

إن الملحمة المحمدية قد بلغت الآن أوجها، ووصلت دعوة النبي إلى نهايتها،

يقوم جزءاً كبيراً من الليل متنفلاً، ولكنه لا يلزم أتباعه بذلك.

وهو مع كونه "قائداً"، لا يستأثر بأية ميزة دون صحابته، بل إن سلوكه الشخصي يعرفهم بحدود الجهد الإنساني، فلقد كانوا يؤسسون بالمدينة أول مسجد في الإسلام على تقوى من الله ورضوان، ولقد كان النبي كما كان صحابته يحملون الأحجار على أكتافهم، وكل منهم يحمل لبنة، ولكنه يلحظ مؤمناً متواضعاً هو عمار بن ياسر يحمل كل مرة لبنتين، فيخاطبه ليذكي حماسه قائلاً: (للناس أجر ولك أجران)⁽⁵⁾.

وهكذا كانت سائر المناسبات تتيح له أن يشجع صحابته ويعلمهم أيضاً.

وهو لا يريد أن يدع شيئاً يشوب صفاء أصحابه أو يثني جهودهم الخالقة.

إنه يقاوم الخطأ، وبخاصة عندما يأتي اعتباطاً بما يشبه المعجزة لتأييد دعوته، فكأنه كان يهتم بأن يبعد عقول أصحابه عن "المعجزة الدارجة" التي

مكة، وهناك أدى النبي شعائر الحج كلها، كأنه يريد تسجيلها إلى الأبد في ذاكرة معاصريه لتنتقل من بعدهم إلى أعقابهم، ثم إنه صعد عرفات على ظهر ناقته، وألقى خطبته الأخيرة، خطبة الوداع، واختير صحابي جهوري الصوت ليكرر هال للناس جملة جملة.

وفي غروب الشمس، بينما كان شبجه المحلق على قمة عرفات، يبدو مرتحلاً عن الدنيا، كأنه نهار ويتلاشى في الأفق، كانت كلمات خطبته تصل الجموع كأنما تخلص إليها من صوت علوي، وكانت الجموع المتأثرة الصامتة تنصت إليه خاشعة متصدعة، وأخيراً صاح النبي: (ألا هل قد بلغت؟) فأجابته الجموع الحاشدة، التي بلغت قمة الانفعال، في صوت واحد (اللهم نعم)⁽⁸⁾.

وفي تلك اللحظة هبط الوحي، كأنما يضع الخاتم على هذه الدعوة، فبركت الناقة - كما روى - على ركبته، وأرغت من الألم، وكانت خاتمة الوحي كما ورد في الخبر قوله تعالى:

﴿أَيُّومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ

وإنه ليستشعر ذلك. وهو يودع صاحبه معاذ بن جبل ويملي عليه وصاياه الأخيرة، وهو ذاهب إلى اليمن لينشر دعوة الإسلام قال: (لو حدث لي أن أراك يوماً فأسأولك ما عندك من الوصايا، ولكن هذه هي المرة الأخيرة التي أحادثك فيها، ولن نجتمع إلا يوم الحشر)⁽⁷⁾.

ولقد كان لدى أبي بكر وعمر نفس الشعور نحو النبي، فلقد كانا يعتقدان أن أجل الوحي قد دنا، وأنه إشارة إلى نهاية النبي القريبة قد وردت في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾.

فمن كل وجه، يبدو النبي مهتماً بدنو أجله، وأنه يأخذ أهفته الأخيرة، فهو يريد أن يملي وصاياه على الأمة، واختار لذلك مناسبة عظيمة حافلة، فأعلن عن رغبته في أداء فريضة الحج ذلك العام، وغادر المدينة ومعه آلاف الحجاج، وانضم إليهم الحجاج الواردون من أنحاء الجزيرة إلى

عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ
دِينًا ﴿ المائدة: ٣.﴾

وسيطلق على هذا الموسم في التاريخ
"حجة الوداع".

والواقع أن أقوال الرسول ﷺ وأفعاله
منذ الآن، حتى اليوم الأخير لن تكون إلا
وداعاً لأهله، ولأصحابه ولأمته، ولهذا
العالم الذي خط له بعمق مصائره.

فضلاً عن ذلك، فإن هذا اليوم الأخير
قريب جداً، إذ حينما عاد إلى المدينة،
وافاه مرض الموت، الذي أنهى ملحمة
العجيبة، وختم دعوته المبلغة.

وفي الصلاة الأخيرة التي أقامها بنفسه
في المسجد، أعلن للحاضرين رغبته في أن
يقضي ما عليه من ديون قائلاً: (أيها الناس
من كان عنده شيء فليؤده ولا يقل فضوح
الدنيا، ألا وإن فضوح الدنيا أهون من فضوح
الآخرة... وإن عبداً خيرهُ الله بين الدنيا وبين ما
عنده فاختار ما عنده) (١٠).

لقد ذاب الصحابة الذين أدركوا
هذه الإشارة في دموعهم، وبعد شهوده
يومين أو ثلاثة صلاة الجماعة، لزم

حجرة زوجته عائشة حتى النهاية.
وعندما حل الأجل، كان رأسه مستنداً
إلى ذراع زوجته التي سمعته، وهو
يتمتم بتلك الكلمات الأخيرة: (اللهم
في الرفيق الأعلى) (١١).

كان هذا هو الكلام الأخير الذي ختم
بالنسبة للتاريخ حقيقة هذه الذات التي
حاولنا تخطيط صورتها النفسية، لكي
نجلي الظاهرة القرآنية.

ولقد حاولنا حين جلينا معالم
هذا الوجه المثالي أن نبرز السمات
الخاصة بمحمد "الرجل" لكي نتلقى
منه - في بحثنا للقضية - شهادته
على محمد "النبي".

ولا شك أن هذه الشهادة تكون
عنصراً ثميناً في دراستنا، فهي
على كل حال شهادة رجل شهد له
زمانه على لسان امرأة، بهذا الحكم
الأخير (١٢): (أي رسول الله!! أنت حتى
في قبرك، أملنا الغالي، لقد عشت بيننا،
ظاهراً، مخلصاً منصفاً، وكنت لكل إنسان
هادياً، حكيماً، منيراً).

الهوامش

- (1) أطلق رسول الله ﷺ على يثرب (طابة أو طيبة) حين نزلها في الهجرة وأطلق عليها: مدينة الرسول) في نفس المناسبة وما تلاها (معجم البلدان لياقوت ج 2 ط بيروت).
- (2) معركة سحق بها القائد القرطاجني هانيبال الجيش الروماني منزلاً بذلك الرعب في قلب روما في القرن الثالث قبل الميلاد.
- (3) معركة اكتسح فيها نابليون الجيش النمساوي عام 1804.
- (4) معركة أحرز فيها الجيش الياباني - بعد هجوم هائل في شبه جزيرة مالقة تسليم القوات الإنجليزية التي كانت تدافع عن هذه القلعة عام 1942م.
- (5) الروض الأنف - الجزء الثاني ص 13.
- (6) رواه البخاري.
- (7) ليس لهذا الخبر أثر في كتب الحديث.
- (8) هذه رواية البخاري، وفي المقرئ (قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت)، وهي تقرب بما جاء في الأصل.
- (9) كذا في رواية ابن الأثير ج 3 ص 116 المطبعة المنيرية 1349هـ.
- (10) رواه البخاري.
- (11) ورد هذا في رثاء عمته صفية.
- (12) لعل هذه ترجمة ما أنشدته عمته السيدة صفية في رثائه من مثل قولها:
فما تمس في حدث مقيماً فقد ما عشت ذا كريم وطيب
وكنت موفقاً في كل أمر وفيما ناب من حدث الخطوب
وقولها:
فلقد كان بالعباد رؤوفاً لهم رحمة وخير رشيد